

قراءة في كتاب كشاكيل

1- نكتة بلاغية:

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
.... [البقرة: 186]

إنه أروع بيان وأحسنه لما اشتمل عليه من المضمون وأدق أسلوب وأجمله، فقد وضع أساسه على التكلم وحده دون الغيبة ونحوها، وفيه دلالة على كمال العناية بأمر الدعاء، ثم قوله عِبَادِي ولم يقل (الناس) وما أشبهه يزيد في هذه العناية، ثم حذف الواسطة في الجواب حيث قال: ۖ فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ ولم يقل: (فقل إنني قريب) ثم التأكيد ب (إن)، ثم الإتيان بالصفة دون الفعل الدال على الثبوت والدوام ليدل على ثبوت القرب ودوامه، ثم الدلالة على تجدد الإجابة واستمرارها حيث أتى بالفعل المضارع الدال عليها، ثم تقييده الجواب أعني قوله: ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ..، بقوله إِذَا دَعَانِ ، وهذا القيد لا يزيد على قوله : دعوة الداع المقيد به شيئاً بل هو عينه، فإن فيه دلالة على أن دعوة الداع مجابة من غير شرط وقيد كقوله - تعالى - : ۖ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۖ [غافر: 60].

فهذه سبع نكات أسلوبية بلاغية: في الآية تنبئ بالاهتمام في أمر استجابة الدعاء والعناية بها، مع كون الآية قد كرر فيها على إيجازها ضمير المتكلم سبع مرات، وهو نمط آخر من أنماط الأسلوب البلاغي المؤثر.

وأبيات للشيخ ماء العيينين يترنّم فيها بدعاء آخر للشعر متوسلاً بحبيبه المصطفى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

إني تحصنت بصاد الصمد... والحاء والميمين من محمد

بجسد النبي عاف جسدي... من كل ما يطول سوء الأبد

اﻟﻪ ﺣﻲ ﻣﺪ ﻭﺑﺎﻗﻲ... ﺳﺒﺤﺎﻧﻪ ﺫﻭ ﻛﻨﻒ ﻭﻭﺍﻗﻲ

ﻭﻧﺤﻦ ﻓﻲ ﻛﻨﻔﻪ ﺍﻟﻤﻨﻴﻊ... ﻣﻦ ﻛﻞ ﺷﺮ ﻭﺍﺩﻯ ﺷﻨﻴﻊ

ﻣﺴﺘﺸﻔﻌﻴﻦ ﺑﺎﻟﻐﻴﺎﺏ ﺁﺣﻤﺪﺍ ... ﻏﻮﺙ ﺍﻟﻮﺭﻯ ﻣﺆﺧﺮﺍ ﻭﻣﺒﺘﺪﺍ

ﻣﻦ ﻗﺎﻟﻬﺎ ﻓﻲ ﺯﻣﻦ ﺍﻟﻮﺑﺎﺀ...ﺁﻣﻨﻪ ﺍﻟﻪ ﻣﻨﻨﻪ ﺍﻟﺒﻼﺀ

2- ﻛﺎﻥ ﻋﻠﻰ ﺭﺋﻮﺳﻬﻢ ﺍﻟﻄﻴﺮ:

ﺍﺭﺗﺒﻂ ﺍﺳﻢ ﺍﻟﻄﻴﺮ ﺑﺘﺨﺎﻓﻪ ﺍﻟﺒﺸﺮ ﻭﺍﻟﺸﻌﻮﺏ، ﻭﻋﻼﻗﺘﻪ ﺑﻬﻢ ﻭﺗﻐﻨﻮﺍ ﺑﻪ ﻓﻲ ﺁﺷﻌﺎﺭﻫﻢ ﻭﺁﻣﺘﺎﻟﻬﻢ ﻭﻋﻘﺪﻭﺍ ﻣﻌﻪ ﺍﻟﺼﺪﺍﻗﻪ ﺍﻟﺤﻤﻴﻤﻪ ﻓﻲ ﺍﻟﻤﻨﺎﺯﻝ ﻭﺍﻟﻤﺰﺍﺭﻉ، ﻭﻋﻠﻤﻮﻩ ﻓﺄﺣﺴﻦ ﺍﻟﺮﻓﻘﻪ ﻭﺍﻟﻮﻓﺎﺀ ﺑﺎﻟﺮﻏﻢ ﻣﻦ ﺍﻟﺄﺳﺮ. ﺍﺗﺨﺬﻭﻩ ﻣﺮﺳﺎﻻً ﻟﺈﺭﺳﺎﻝ ﺍﻟﺮﺳﺎﺋﻞ ﺍﻟﻌﺴﻜﺮﻳﻪ ﻭﺍﻟﺴﻴﺎﺳﻴﻪ، ﻭﺍﺩﺧﻠﻮﻩ ﻓﻲ ﺍﻟﻤﻨﺎﻓﺴﺎﺕ ﺍﻟﺄﻭﻟﻤﺒﻴﻪ ﻟﻠﺴﺒﺎﻗﺎﺕ ﻭﺍﺩﺍﺓ ﻟﻠﻘﻨﺼ، ﻭﺍﺗﺨﺬﺗﻪ ﺑﻌﺾ ﺍﻟﺪﻭﻝ ﺷﻌﺎﺭاً ﻭﻋﻼﻣﻪ ﻓﻲ ﺁﻋﻼﻣﻬﻢ ﻭﺑﻴﺎﺭﻗﻬﻢ، ﻛﻨﺎﻳﻪ ﻋﻦ ﺍﻟﻘﻮﻩ ﻭﺍﻟﻤﻨﻌﻪ. ﻫﺬﺍ ﻓﺼﻼ ﻋﻦ ﺍﻟﺘﺠﺎﺭ ﺑﻪ ﻭﺑﻴﻌﻪ ﻓﻲ ﺍﻟﺄﺳﻮﺍﻕ ﺍﻟﺸﻌﺒﻴﻪ. ﻛﺬﻟﻚ ﻃﻬﺮﺕ ﺩﺭﺍﺳﺎﺕ ﻛﺜﻴﺮﻩ ﻋﻦ ﻃﺎﻫﺮﻩ ﻫﺠﺮﻩ ﺍﻟﻄﻴﻮﺭ ﻭﻣﺎ ﺗﻮﺣﻴﻪ ﻣﻦ ﺗﻐﻴﺮﺍﺕ ﻓﻲ ﺍﻟﻄﺒﻴﻌﻪ ﻭﺍﻟﻤﻨﺎﺥ، ﻭﺩﺭﺍﺳﻪ ﺁﺷﻜﺎﻝ ﺁﺳﺮﺍﺑﻬﺎ.

أَقُولُ وَفَدَ نَاحَتِ بَقْرِي حَمَامَةً... أَيَا جَارَتَا هَلْ تَشْعِرِينَ بِحَالِي

أَيُضْحِكُ مَا أُسَوِّرُ وَتَبْكِي طَلَيْقَةً...وَيَسْكُتُ مَحْرُونٌ وَيَنْدِبُ سَال

ﻭﻟﻢ ﻳﻜﻦ ﺍﻟﻘﺮﺁﻥ ﺑﺪﻋﺎ ﻣﻦ ﺫﻟﻚ ﻓﻘﺪ ﺟﺎﺀﺕ ﺁﻳﺎﺕ ﺗﺮﺑﻮﺍ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﺨﻤﺲ ﻋﺸﺮﻩ ﺁﻳﻪ ﺷﻤﻠﺖ ﻋﺪﻩ ﻣﻌﺎﻧﻰ ﻛﺎﻟﺴﻌﺎﺩﻩ ﻭﺍﻟﺘﺸﺎﻭﻡ ﻭﺍﻟﺘﻄﻴﺮ، ﻛﻘﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ :-ﻭَﻟَﺤَﻢَ ﻃَﻴْرٌ ﻣِّمَّﻧَﺎ ﻳَﺸْﺘَﻬُﻮﻥَ[ﺍﻟﻮﺍﻗﻌﻪ: 21]، ﻭﻗﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ :- ﻗَﺎﻟُوا ﻟِﻨَّﻧَﺎ ﺗَﻄَﻴَّرَﻧَﺎ ﺑِﻜُﻤْ ﻟَ... [ﻳﺲ: 18].

ﻋﻤﻞ ﺍﻟﺒﺸﺮ ﻣﻦ ﺧﻴﺮ ﺍﻭ ﺷﺮ: ﻟَﻜُلِّ ﻟِﻨَّﻧَﺎ ﺍﻟْﻠِﻤَﺎﺋِﻪُ ﻃَﻴْرَﻧَﺎ ﻓﻲ ﻋُﻨُﻘِﻬِﻢْ ﻟَ...[ﺍﻟﺌﺮﺍﺀ: 13].ﺷﻮﻡ: ﻗَﺎﻟُوا ﻟِﻨَّﻧَﺎ ﺗَﻄَﻴَّرَﻧَﺎ ﺑِﻜُﻤْ ﻟَ...، ﻃﺎﺋﺮ ﺍﻟﻔﺮﺩﻭﺱ: ﻣﻦ ﻃﻴﻮﺭ ﻏﻴﻨﻴﺎ ﺍﻟﺠﺪﻳﺪﻩ، ﻋﺎﺩﻩ ﻣﺎ ﻳﻜﻮﻥ ﺫﺍ ﺭﻳﺶ ﺯﺍﻩ، ﻭﺫﻳﻞ ﻃﻮﻳﻞ ﺍﻟﺮﻳﺶ ﻋﻨﺪ ﺍﻟﺰﻛﻮﺭ. ﻋﻠﻢ ﺍﻟﻄﻴﻮﺭ: ﻋﻠﻢ ﻳﻌﻨﻰ ﺑﺪﺭﺍﺳﻪ ﻣﺠﻤﻮﻋﺎﺕ ﺍﻟﻄﻴﻮﺭ ﻭﺁﺷﻜﺎﻟﻬﺎ ﻭﻋﺎﺩﺍﺗﻬﺎ ﻭﻧﻤﻮﻫﺎ.

تستخدم العرب: الكناية التي جاءت على صورة تشبيه (كأن على رؤوسهم الطير) لوصف حالة تتسم بالسكون والترقب والخشية.

وردت الكناية كذلك بمعنى الحلم، فلا طيش فيهم ولا خفة. وقيل: (يُضرب للساكن الوادع، والطير لا تسقط إلا على ساكن).

وقال الزمخشري: أن المثل يُضرب للحلماء وأهل الأناة، قال ذو الرمة:

فطلت تصاديتها وطلت كأنها... على رأسها سرب من الطير لوح

وورد هذا التعبير في حديث نبوي: (كأن على رؤوسهم الطير) ذلك كناية عن إطرافهم رؤوسهم وسكوتهم وعدم التفاتهم يمينا وشمالا - أي على رأس كل واحد الطير (وكأنه) يريد صيدها، ولا يتحرك، وهذه كانت صفة مجلس رسول الله ﷺ (ص) إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير.

هناك من يرى أن أصل الكناية: هي أن الغراب إذا وقع على رأس البعير فإنه يلتقط منه الحشرات كالقراد، فلا يحرك البعير رأسه لئلا ينفر عنه الغراب.

ومن معاني التعبير كذلك: ما يدل على شدة الوقار والهدوء، فلو نزل على رأس الموصوف طائر لظل الطائر ساكنا لم يطر، ومن هنا القول (إنه يساكن الطير)، ومن أمثالهم في صفة الحليم: (إنه لواقع الطائر).